المحاضرة الخامسة: الرحلة الفعليّة

ارتبط مسار تكون النص الرحلي بمسألة التعدد، مما أرز سمات وخصوصيات ضمن كم هائل من النصوص تنوعت حسب أسباب قيامها وأهدافها المرسومة، وهو الشيء الذي انتحاه محمد الفاسي حين قسم الرحلة إلى خمسة عشر نوعا يمكن النظر إليها من زاويتين هما: الرحلة الفعلية والرحلة المتخيلة.

1/ الرحلة الفعلية:

تتجسّد الرحلة الفعلية ضمن ثلاثة أنواع: الرحلة الدينية وما يشابهها (الزيارية، الفهرسية)/ الرحلة العلمية أو الأدبية أو النصوص القريبة منها (الاستكشافية، الدراسية، المقامية، الأثرية)/ الرحلة السفارية والسياسية.

أ–الرحلة الحجية أو الزياريّة:

تحفل النصوص الرحلية الحجية بوفرة في التنويع، وتأتي كما لو أنّها سيرة ذاتية أو مذكرات شخصية محدودة في الزمان والمكان، تكتب في وضعيات مختلفة، وبأسلوب يمتزج بين التقرير الجاف والانسياب الرومانسي المتدثر بالمعاناة وغلالات من المحنة بسبب البعد عن الأهل والوطن.

تقدم الرحلات الحجية صورة عن النشاط الإنساني الذي يتنامى في أجواء روحيّة يميزها التوق إلى التطهر من المعاصي والتقرب إلى الله عبر ممارسة الطاعات للتطهر من الآثام، مما يضفي الشعور بالارتياح لبدء حياة جديدة تكون عتبة للحياة الآخرة.

دفع التعالق الحاصل بين النص الرحلي الجانب الديني الكثير من الكتاب ممن يملكون حسا أدبيا إلى تدوين رحلاتهم باعتبارها هجرة ومرحلة حاسمة في حياتهم.

تحكم بنية النص الرحلي الحجي ثلاث محطات تتجلّى كمشاهد هي: مشهد الخروج / مشهد المسير / مشهد الوصول.

1/ مشهد الخروج:

لا يكون السفر في الرحلة الحجيّة فرديّا وإنما ضمن موكب ينظمه ويقوده شخص عارف بالطريق ويتصف بالورع والتقوى والأمانة والحنكة في التفاوض وحسم الأمور، تبرز هذه التفاصيل في مشهد الخروج الذي يقترن بلحظتين أساسيتين تتعلقان بلحظة كتابة هذا المشهد، هل دوّن أثناء أو بعيد الخروج أو بعد انتهاء الرحلة، وتكتسي هذه الأسئلة أهمية في فهم المعطيات لأن أهمية هذا المشهد تتأتى مما يتضمنه من عناصر تخيلية ترفدها رؤية الرحالة/ الراوي التي تسبق مشهد الوصول، فالنص الذي يكتب أثناء الرحلة ينقل مشاهدات ويسجل انطباعات حول المعلوم متوغلا شيئا فشيئا في المجهول.

يعمد الرحالة إلى إبراز الحافز الذي دفعه للخروج إلى الحج والزيارة من أجل إتمام الفرائض الدينية والتطهر والتكفير عن الأخطاء والبحث عن الخلاص، كما تأتي الأحلام كحافز باطني وسبيل آخر للارتحال، من منظور أنها نداء باطني للتحول من طريق العبث إلى الرشد، ومثال ذلك ما جرى لناصر خسرو (ق5هـ) الذي تجلت له رؤيا شيخ ينهاه عن حياة اللهو والخمر، فجهز نفسه للقيام برحلات طويلة زار فيها الحج أربع مرات، وقد دوّن رحلته الوصفية في كتاب باللغة الفارسية أسماه "سفر نامة".

2/ مشهد المسير:

ويشمل وجهتي السفر ذهابا وإيابا، يتسم سرد الوجهة الأولى بالإسهاب والتفصيل، أمّا سرد الوجهة الثانية فيتسم بالاختصار والإيجاز ولا يروى فيه إلا ما يكمل الجانب الأول تجنبا الوقوع في التكرار، ويشكل مشهد المسير بؤرة النص الرحلي ونسيج الحكي وجامعه؛ لأن السارد يصف ويروي انطلاقا من عين متحركة تسير من نقطة إلى أخرى.

3/ مشهد الوصول:

يشكل لحظة اصطدام عين الرحّالة المحمّلة بمشاهد تخييلية عن ذلك الفضاء بالواقع المرئي، فيعيد تأسيس رؤية ثالثة تنبني على انطباعات ولدت حديثا، وقد عنيّ النقاد بمشاهد الوصول وعلى الخصوص ماري برايت التي اعتبرتها ذات دلالات في النص الرحلي عامة، بحيث يبرز اصطدام المجرد بالملموس، فيتجابه خيال الرحالة واحتمالاته السابقة مع معطيات العالم الواقعي فيبحث عن التعديل والمقارنة والفهم، كما يمكن اعتبار مشاهد المسير هي حلقات من مشاهد صغرى للوصول أو العبور، ذلك أن كل نص رحلي يتضمن كرونولوجية تؤرخ لمحطاته الزمنية وفضاءات العبور التي تستولد سرودا مفتوحة.

2/ رحلات المثاقفة (الرحلات العلمية):

يغلب عليها الطابع الاستكشافي والوصفي، وغالبا ما يدونها الرحّالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي، فحصل له احتكاك فكري وتلاقح ثقافي بمكونات معرفية أجنبية.

تؤرخ الرحلة العلمية للحظة تحول المعرفة الفردية للرحّالة الذي يكتشف ويصطدم ويعرف ثم يقارن ويركب، فيترابط الأدبي والعلمي في تأثيث هذا النص، ومثال ذلك رحلات المبتعثين من طلبة العلم في عالمنا العربي خلال بدايات النهضة، وأشهر نص "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" لرفاعة الطهطاوي.

توجد أربع نقاط محورية لفهم هذا النوع من النصوص:

1- طابع الاختلاف والتعدد الذي يغذي النص الرحلي العلمي والأدبي انطلاقا من حمله لصفة مركبة بين شيئين يتكاملان ويؤسسان لثنائية طالما ظلت محل نقاش في التراث النقدي القديم والحديث، هو استكشاف يتوقف على طبيعة وعي ومعرفة الرحالة الذي يخضع لصدمات تنتهي بالدهشة والاستيعاب المحقق للتلاقح أو التأثير المتبادل أو من طرف واحد، أو النكوص والانتقاء ابتعادا عن كل معرفة غيرية تخلخل البديهيات.

2- غنى هذا النوع يكمن في تشذره إلى مجالات غير محصورة أو مقيدة، كالجغرافيا والاجتماع وعلوم الطبيعة والأدب، فيأتي طافحا بالطرائف والشعر والمحكيات والرسائل والخطب وغيرها، وكلها تضفي على النص الرحلي طابع الانفتاح والجمع بين طابع المعرفة والمتعة.

3- انشداد هذا النوع من النصوص الرحلية وارتباطه بالمعطيات الثقافية والسياسية والاجتماعية للفضائين (المرسِل والمستقبِل) إضافة إلى طبيعة الحوافز والاستعدادات الفكرية والنفسية للرحالة.

4- يتجلى طابع الرحلة العلمية الأدبية في النصوص الرحلة ضمن مستويين:

أ/ بنية صغرى داخل الرحلات باعتبار أن كل رحلة تؤرخ للأفكار والثقافات عن طريق الحوار والحديث والإنصات والتأمل.

ب/ بنية كبرى في النصوص الرحلية التي تعلن عن نفسها منذ البداية بوصفها نصوصا استكشافية.

3/ رحلات النحن إلى الآخر:

تبرز النحن (الأنا) في علاقتها مباشرة مع الغير (الآخر)، ويتعلّق الأمر بحمل خطاب النحن الرسمي إلى الآخر، إلى جانب آراء ومعطيات الأنا عن الآخر إلى الغير، وبالتالي فالنصوص المدونة في هذا المجال تكشف عن جزئها المكتوب الأساسي في هذه العملية وهو خطاب النحن وحمولة الأنا؛ أي ما هو ظاهر وباطن، ثابت ومتحرك في أفق تعديل المتحرك وتلقي الجواب عن الثابت، وقد ارتبطت هذه النصوص بطبيعة الوضع السياسي في البلدين المرسل والمستقبل، في حالتي الاستقرار أو الاختلال، لهذا ما يتم اختيار العلماء والأدباء والمتمرسين لمهمة السفارة، لأنّ الامر يتعلّق بتحسين العلاقات وأقناع الآخر بما يخدم مصالح النحن أو جمع معلومات أو إنهاء خلاف، وغيرها من المهام.